

من

تاريخ عبد اللطيف البغدادي ورحلته

الخليفة الناصر

كان الناصر لدين الله شاباً مرحاً عنده ميعاة الشباب ، يشق الدروب والأسواق أكثر الليل والناس يتهيّبون لقياه ، وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم انطفئ بهلاكه وظهر التسنن المفرط ، ثم زال وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهواذي ، وتفنن الناس في ذلك وبخل فيه الاجلاء ثم الملوك ، فالبسوا الملك العادل وأولاده سراويل الفتوة وكذا البسوا شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش وأتابك سعد صاحب شيراز ، والملك الظاهر صاحب حلب ، وتخوفوا من السلطان طغريل وجرت بينهم حروب ، وفي الآخر استدعوا تكش لحربه وهو خوارزم شاه فخرج في جحفل لجب والتقى معه على الري واحتز رأسه وسيره الى بغداد ثم تقدم نحو بغداد يلتمس رسوم السلطنة فتحرّكت عليه أمة الخطا فرجع الى خوارزم وما لبث ان مات .

وكان الناصر لدين الله قد خطب لولده الأكبر ابي نصر بولاية العهد ، ثم ضيق عليه لما استشعر منه وعين أخاه ، ثم أمر ابا نصر بأن يشهد على نفسه أنه لا يصلح وأنه قد نزل عن الأمر ، وأكبر الاسباب في ذفور الناصر من ولده هو الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي ، فإنه خيل الى الخليفة فساد نية ولده بوجوه كثيرة ، وهذا الوزير أفسد على الخليفة قلوب الرعية والجند وبغضه اليهم والى ملوك الأطراف وكاد يخلي بغداد عن أهلها بالارهاب تارة وبالقتل تارة اخرى ، ولا يقدر أحد أن يكشف للخليفة حال الوزير حتى تمكن الفساد وظهر ، فقبض عليه برفق ،

وفي اثناء ذلك ظهر بخراسان وما وراء النهر خوارزم شاه محمد ابن تكش وتجير ، وطوى البلاد واستعبد الملوك الكبار ، وفتك بكثير منهم وأباد أمما كثيرة من الترك ، فاباد أمة الخطا وأمة الترك ،

وأساء الى باقي الأمم الذين لم يصل اليهم سيفه ، ورهبه الناس كلهم ، وقطع خطبة بني العباس من بلاده ، وصرح بالوقية فيهم وقصد بغداد ، فوصل الى همذان وبوادره الى حلوان ، فوقع عليهم تلج عظيم عشرين يوماً فغطاهم في غير ابانه ، فأشعره بعض خواصه أن ذلك غضب من الله حيث يقصد بيت النبوة ، والخليفة مع ذلك قد جمع الجموع وأنفق النفقات واستعد بكل ما يصل المكنة اليه وسره أن الله رده على عقبه ، وقد سمع ان أمم الترك قد تألبوا عليه وطمعوا في البلاد لبعده عنها فقصدهم فقصدوه ، ثم كايدهم وكأثروه الى أن مزقوه في كل وجهة ، وبلبلوا لبه وشتتوا شمله ، وملكوا عليه أقطار الأرض حتى ضاقت عليه بما رحبت ، وصار اين توجه وجد سيوفهم متحكمة فيه ، فتقاذفت به البلاد حتى لم يجد موضعاً يحويه ولا صديقاً يؤويه فشرق وغرب وأنجد وأسهل وأصحر وأجبل ، والرعب قد ملك لبه ، فعند ذلك قضى نحبه ، قال : وكان الشيخ شهاب الدين لما جاء في الرسالة خاطبه بكل قول ولاطفه ولايزداد الا طغيانا وعتوا .

ولم يزل الامام الناصر مدة حياته في عز وجلالة وقمع الاعداء واستظهار على الملوك ، لم يجد ضيماً ، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ، ولا مخالف إلا دمغه ، وكان من أضمـر له سوءاً رماه الله بالخذلان وأباه ، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملوك لا يخفى عليه شيء من احوال كبارهم وصغارهم ، واصحاب أخباره في اقطار البلاد يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنية حتى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة ، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفطن لها أحد ، يوقع الصداقة بين ملوك متعابيين وهم لا يشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقيين وهم لا يفطنون . قال: ولو اخذنا في زوادر حكاياته لاحتاجت الى صحف كثيرة ، ولما نخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل ، فصار يباليغ في التكتم والورقة تأتيه فاختم ليلة بامرأة نخلت من باب السر فصباحته الورقة بذلك وفيها ، كان عليكم دواج فيه صورة الافيلة ، فتحير وخرج من بغداد وهو لا يشك أن

الخليفة يعلم الغيب لأن الامامية يعتقدون أن الامام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل وما وراء الجدار ، وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم فقيل ارجع فقد عرفنا ما جئت به فرجع وهو يظن انهم يعلمون الغيب، ووصل رسول آخر فقال الرسالة معي مشافهة الى الخليفة فحبس ونسي ثمانية اشهر ثم أخرج وأعطى عشرة آلاف دينار ، فذهب الى خوارزم شاه وصار صاحب خبر لهم ، وسير جاسوسا يطلعه على أخبار عسكر خوارزم شاه لما توجه الى بغداد وكان لا يقدر أحد أن يدخل بينهم الا قتلوه فابتدأ الجاسوس وشوه خلقة وأظهر الجنون وأنه قد ضاع له حمار فأذسوا به وضحكوا منه ، وتردد بينهم أربعين يوما ، ثم عاد الى بغداد فقال هم مائة وتسعون الفا إلا أن يزيدوا الفا أو ينقصوا
• الفا •

وكان الناصر إذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع ، وله مواطن يعطي فيها عطاء من لا يخاف الفقر ، ووصل رجل معه ببغاء يقرأ قل هو الله أحد تحفه للخليفة من الهند ، فأصبحت ميتة وأصبح حيران ف جاء فراش يطلب منه الببغاء فبكى وقال الليلة ماتت فقال : قد عرفنا هاتها ميتة ، وقال كم كان في ظنك ان يعطيك الخليفة قال خمسمائة دينار فقال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها اليك أمير المؤمنين ، فإنه علم بحالك منذ خرجت من الهند، وكان صدر جهان قد سار الى بغداد ومعه جمع من الفقهاء، وواحد منهم لما خرج من داره من سمرقند على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد، فقال الخليفة لا يقدر أن يأخذها مني ، فأمر بعض الوقابين انه حين يدخل بغداد يضربه ويأخذ الفرس ويهرب في الزحمة ففعل ، ف جاء الفقيه يستغيث فلا يفاث ، فلما رجعوا من الحج خلع على صدر جهان واصحابه سوى ذلك الفقيه ، وبعد الافراغ منهم خلع عليه وأخرج الى الباب وقدمت له فرسه وعليها سرج من ذهب وطوق ، وقيل له لم يأخذ فرسك الخليفة إنما اخذها أتوني، فخر مغشيا عليه واستجل بكراماتهم •

قال الموفق عبد اللطيف : وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث ، واستتاب ذوايا في ذلك ، فأجرى عليهم جرايات وكتب الملوك والعلماء اجازات ، وجمع كتابا سبعين حديثا ، ووصل على يد شهاب الدين الى حلب ، وسمعه الملك الظاهر وجماهير الدولة ، وشرحته شرحا حسنا ، وسيرته صحبة شهاب الدين وسبب انعكافه على الحديث أن الشريف العباسي قاضي القضاة نسب اليه تزوير ، فأحضر القاضي وثلاثة شهود فعزر القاضي بأن حركت عمامته فقط ، وعزر الثلاثة بأن أركبوا جمالا وطيف بهم المدينة يضربون بالدرة فمات واحد تلك الليلة ، وأخر لبس لبس الفساق ودخل بيوتهم والثالث لزم بيته وادعى وهو البندنجي رفيقنا ، فبعد مدة احتاج وأراد بيع كتبه فتبين أحد الأجزاء فوجد فيه اجازة للخليفة من مشائخ بغداد فرفعها فخلع عليه ، وأعطى مائة دينار وجعل وكيلًا عن أمير المؤمنين في الاجازة والتسميع .

وأقام سنين يرأس جلال الدين حسن صاحب الموت يراوده أن يعيد شعار الاسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك مما رفعوه في زمان سنان ، ويقول إنكم انا فعلتم ذلك كنايدا واحدة ، ولم يتغير عليكم من أحوالكم شيء ، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيوق ، واتفق أن رسول خوارزم شاه بن تكش ورد في أمر من الامور فزور على لسانه كتب في حق الملاحية يشتمل على الوعيد وعزم الايقاع بهم وانه سيخرب قلاعهم ، ويطلب من الخليفة المعونة في ذلك ، وأحضر رجل منهم كان قاطنا ببغداد ووقف على الكتب وأخرج بها وبكتب أخرى على وجه النصيحة نصف الليل على البريد ، فلما وصل الموت ارهبهم فما وجد مخلصا الا التظاهر بالاسلام وإقامة شعاره ، وسيروا إلى بغداد رسولا معه مائتا شاب منهم وبنانير كبارا في منجوق وعليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وطافوا بها في بغداد وجميع من حولها يعلن بالشهادتين ، وكان الناصر لدين الله قد ملا القلوب هيبة الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته ، ولقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والاكابر ، وإذا جرى ذكره حفظوا أصواتهم هيبة وإجلال ، وورد

بغداد تاجر معه متاع دمياط المذهب فسالوه عنه فأذكر فأعطي علامات فيه من عدده والوانه وأصنافه فازداد إنكاره ، فقيل له من العلامات أنك نذمت على مملوكك التركي فلان فأخذته إلى سيف بحر دمياط خلوة وقتلته ودفنته هناك ولم يشعر بذلك أحد .

أما مرض موته فهو وسنان بقي به ستة اشهر ولم يشعر احد من الرعية نكبة حاله حتى خفي على الوزير وأهل الدار ، وكان له جارية قد علمها الخط بذنسه ، فكانت تكتب مثل خطه فتكتب على التواقيع بمشورة قهرمانة الدار ، وفي اثناء ذلك نزل جلال الدين محمد خوارزم شاه على ضواحي بغداد هاربا منقضا من المال والرجال والدواب فافسد بقدر ما كانت تصل يده إليه ؛ وكانوا يدارونه ولايمضون فيه أمرا لغيبة رأى الخليفة عنهم إلى أن راح إلى أنزيبجان ونهب في نهايه دقوقا واستباحها ، وكانت خلافته سبعا واربعين سنة ، توفي في سلخ رمضان وبويع لولده أبي نصر ولقب بالظاهر بأمر الله ، فكانت خلافته تسعة اشهر .

المستنصر

بويع أبو جعفر ، وسار السيرة الجميلة وعمر طررق المعروف الدائرة ، وأقام شعار الدين ومنار الاسلام ، وعم بسخائه وبذله ، واجتمعت القلوب على حبه والألسنة على مدحه ، ولم يجد أحدا من المتعبية فيه معابا ، قد اطبقوا عليه ، وكان جده الناصر يقربه ويحبه ويسميه القاضي لعقله وهديه وانكاره ما يجد من المنكر ، والناس معه اليوم في بلهنية وعيشة مرضية ، وسير إليه خوارزم شاه يلتمس منه سراويل الفتوة ، فسير إليه فرس النوبة فسر بذلك وابتهج ، وقبل الارض مرارا شكرا لله على هذه المنزلة التي رزقها وحرمها أبوه ، ثم إنه أذعن عن العبودية والطاعة .

سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م

قال الموفق عبد اللطيف إن الفرنج عاثوا في سوق العسكر ، فرجع عليهم السلطان فطحنهم طحنا ، وأحصى قتلاهم بأن غرزوا في كل قتيل سهما ثم جمعوا السهام ، فكانت اثني عشر ألفا وخمسمائة ، والذين لحقوا بأصحابهم هلك منهم ثمانية وأربعين ألفا ، وبلغت الغرارة عندهم مائة وعشرين بينارا . وخرجوا مرة فقتل منهم ستة آلاف ونيف ، ومع هذا فصبرهم صبرهم ، وعملوا على عكا بـرجين من خشب كل برج سبع طبقات بأخشاب عالية ، ومسامير هائلة يبلغ المسمار نصف قنطار ، وضبات على هذا القياس ، وصفح كل برج منهما بالحديد ، ولبس الجلود ثم اللبود المشربة بالخل ، وجال بشباك من حبال القنب لترد حدة المنجنيق ، وكل واحد يعلو سور عكا بثلاث طبقات ، وزحفوا بهما على السور ، وفي كل طبقة مقاتلة ، فيؤس المسلمون بعكا ، فقال دمشقى يقال له ابن النحاس : دعوني أضربها بالمجانيق ، فسخرها منه فطلب قراقوش ان يمكنه من الآلات ، ورمى البرج بحجارة حتى خلخله ، ثم رماها بقدر نطف ثم صاح الله اكبر وعلا الدخان فضج المسلمون وبرزوا من عكا وعملت النار في أرجائه والفرنج ترمي اسهمها من الطبقات ، واشتغلوا فاحرق المسلمون الستائر والعدد فانكسرت صولتهم ، ثم اجتمعت همتهم وقوتهم وعملوا كبشا هائلا رأسه قناطر من الحديد لينطحوا به السور فينهدم ، فلما سحبوه وقرب من السور ساخ في الرمل لثقله وعجزوا عن تخليصه وكان المسلمون في عكا ، في مرض وجوع قد ملوا من القتال ما يحملهم سوى الايمان بالله ، وقد هدمت الفرنج برجا وبدنة ، ثم سد ذلك المسلمون في الليل ووثقوه ، وكان المسلمون اول راكب وآخر نازل .

راشد الدين سنان

كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين ، فاجتمع اليه محبوبه على ما ذكره الموفق عبد اللطيف لكي يقتلوه ، فقال لهم : لم تقتلونى ؟ قالوا : لترجع إلينا صحيحا فاننا نكره أن

تكون فينا أعرج ، فشكرهم ودعا لهم فقال اصبروا علي فليس هذا وقته ولاطفهم ، ولما أراد أن يحلهم من الاسلام ويسقط عنهم التكاليف لأمر جاءه من الموت على عهد الكيا محمد نزل إلى مصيبات في شهر رمضان فأكل فيها فأكلوا معه ، واستمر امرهم على ذلك .

الملك العزيز

كان العزيز شابا حسن الصورة ظريف الشمايل قويا ذا بسطش وأيد وعفة حركة ، حيبا كريما عفيفا عن الاموال والفروج ، وبلغ من كرمه أنه لم يبق له خزانة ولا خاص ولا برك ولا فرش ، وأما بيوت أصحابه فتفيض بالخيرات ، وكان شجاعا مقداما ، وبلغ من عفته أنه كان له غلام تركي اشتراه بألف دينار ، يقال له ابو شامة ، فوقف على رأسه خلوة فنظر إلى جماله فأمره أن ينزع ثيابه وأجلسه معه مقعد الفاحشة ، وأدركه التوفيق ونهض مسرعا إلى بعض سرارية فقضى وطره ، وخرج والغلام بحاله فأمره باللبسة والخروج ، وأما عفته عن الاموال فلا أقدر أن أصف حكاياته في ذلك .

الملك الظاهر

كان جميل الصورة رائع الملاحظة موصوفا بالجمال في صغره وفي كبره ، وكان له غور ودهاء ومكر ، وأعظم دليل على دهائه مقاومته لعنه الملك العادل ، وكان لا يخليه يوما من خوف وشغل قلب ، وكان يصادق ملوك الأطراف ويباطنهم ويلاطفهم ويوهمهم أنه لولا هو لقد كان العادل يقصدهم ، ويوهم عمه أنه لولا هو لم يطعه أحد من الملوك ويكاشفوه بالشقاق ، فكان بهذا التدبير يستولي على الجهتين ويستعبد الفريقين ، ويشغل بعضهم ببعض ، وكان كريما

معطاء ، يغمر الماوك بالتحف والرسل بالنحل والشعراء واقتصاد
بالصلوات ، وتزوج بابنة العادل وماتت معه ، ثم تزوج بأختها وكان
له عرس مشهور ، وجاءت منه بالملك العزيز في أول سنة عشر ،
وأظهر السرور بولادته ، وبقيت حلب مزينة شهريين والناس في أكل
وشرب ، ولم يبق صنفا من أصناف الناس إلا أفاض عليهم النعم
ووصلهم بالاحسان ، وسير إلى المدارس والخوانك الغنم والذهب ،
وأمرهم أن يعملوا الولائم ، ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان
والخدم ، وعمل للنساء دعوة مشهورة أغلقت لها المدينة ، وأما داره
بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب الكثيرة ، وكان حين أمر
بحفر الخراب حول القلعة وجد عشرين تينة ذهب فيها قنطار
بالحلي ، فعمل منها أربعين قشوة بحقاقها ، وختن ولده الأكبر
أحمد وختن معه جماعة من أولاد المدينة ، وقدم له تقادم فلم يقبل
منها شيئا رفقا بهم ، لكن قبل قطعة سمندل طول ذراعين في ذراع
فغمسوها في الزيت وأقدوها حتى نفذ الزيت وهي ترجع بيضا
فالتها بها عن جميع ما حضر ، وكان عنده من أولاد أبيه وأولاد
أولادهم مائة وخمسة وعشرون نفسا ، وزوج الذكور منهم بالاناث ،
وعقد في يوم واحد خمسة وعشرين عقدا بينهم ، ثم صار كل ليلة
يعمل عرسا ويحتفل له ، وبقي على ذلك مدة رجب وشعبان
ورمضان ، وكان بينه وبين سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن
كيخسرو صداقة موكنة ومراسلات ، ومرض نيفا وعشرين يوما
وأوصى أن يكون الخادم طغرل دزدار القلعة ، وأن يكون شمس الدين
ابن أبي يعلى الموصلى وزيرا كما كان ، ولا يخرج أحد عن أمره ،
وسيف الدين بن جندر أتاك الجيش ، وكان القاضي بهاء الدين بن
شداد مسافرا إلى العادل بمصر ، فقدم بعد ثلاث فحل جميع ذلك
بالتدريج والخفية وأعانه مرض الوزير ، فلما عوفي وجد الأمور
مختلفة فسافر إلى الروم ، ثم انتكس ومرض ومات في السنة ، وأما
ابن جندر فنزل عن الاتابكية وجعلوها للملك المنصور - يعني الذي
كان تسلطن بمصر بعد والده العزيز - قال : فبقي أياما وعزلوه ثم
ولوه ثم عزلوه غير مرة وتلاعبت بهم الآراء ، وكان قصدهم أن يكون
الطواشي شهاب الدين طغرل هو الاتابك فسعوا إلى أن تم ذلك ، ثم

أنفوا أن يحكم عليهم خادم فاختلفت نياتهم ورأوا أن يملكوا الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، وعزم الامراء على التوثب بحلب ، ثم قوي أمر طغريل وثبت وقد هموا بقتله مرات ووقاه الله ، ولو ساق الأفضل لملك حلب ، ولما اختلف عليه اثنان ، لكنه كاتب عز الدين صاحب الروم وحسن له أن يقصد حلب فحشد وقصدها ، ونازل تل باشر فأخذها وأخذ عين تاب ورعبان ومنبج ، وكاتبه أكثر رؤساء حلب والامراء ، فلما رأى طغريل والخواص ذلك طلبوا الملك الأشرف فجاء ونزل بظاهر حلب مع شدة خوف ، وجاءت طائفة من العرب ومعهم عسكر يتولعون بعسكر الروم ، فسير اليهم عز الدين كبراء دولته فساقوا بجهل وامعدوا الى بزاعة في تلك البرية فخارت قواهم وذبلت خيلهم ، واختطفهم العرب سبائيا كما تؤخذ النساء ، فخار قلب عز الدين ورجع الى تل باشر ثم الى بلاه ، ولحقه غبن وأسف حتى مرض ومات ، وأما الملك الأشرف فانه تمكن من أموال حلب ورجالها وقوي بذلك على الموصل حتى مرض ، وعظم عند ملوك الشرق .

الملك العادل

كان أصغر الأخوة وأطولهم عمرا ، وأعمقهم فكرا ، وأنظرهم في العواقب وأشدهم امساكا وأحبهم للدراهم ، وكان فيه حلم وأناة وصبر على الشدائد ، وكان سعيد الجد علي الكعب مظفرا بالأعداء من قبل السماء ، وكان أكولا نهما يحب الطعام واختلاف ألوانه ، وكان أكثر أكله في الليل كالخيل ، وله عندما ينام آخر الأكل رضيع ، ويأكل رطل بالدمشقي خبيص السكر يجعل هذا كالجوارش ، وكان كثير الصلاة ويصوم الخميس وله صدقات في كثير من الأوقات وخاصة عندما تنزل به الآفات ، كان كريما على الطعام يحب من يؤاكله ، وكان قليل الأمراض قال لي طبيبه بمصر أني أكل خبز هذا السلطان سنين كثيرة ولم يحتج الي سوى يوم

واحد أحضر اليه من البطيخ أربعون حملا ، فكسر الجميع بيده
وبالغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة فعرض له تخمة ، فأصبح
فأشرت عليه بشرب الماء الحار وأن يركب طويلا ففعل وأخر النهار
تعشى وعاد الى صحته ، وكان نكاحا يكثر من اقتناء
السراي ، وكان غيورا لا يدخل داره خصي الا دون البلوغ ، وكان
يحب ان يطبخ لنفسه مع أن في كل دار من دور حظاياه مطبخ
دائر ، وكان عفيف الفرج لا يعرف له نظر الى غير حلائله ، نجب له
أولاد من الذكور والأناث سـلطن الذكور وزوج البنات بملوك
الأطراف ، آخر ماجرى من ذلك بعد وفاته أن ملك الروم كيقباز
خطب الى الملك الكامل أخته واحتفل احتفالا شبيدا ، واجتمع في
العرس ملوك وملكات ، وكان العادل قد أوقع الله بغضته في قلوب
رعاياه والمخامرة عليه في قلوب جنده ، وعملوا في قتله اصنافا من
الحيل الدقيقة مرات كثيرة ، وعندما يقال ان الحيلة قد تمت تندفسخ
وتتكشف وتحسم موادها ، ولولا أولاده يتولون بلاده لما ثبت ملكه
بخلاف أخيه صلاح الدين فانه انما حفظ ملكه بالمحبة له وحسن
الطاعة ، ولم يكن رحمه الله بالمنزلة المكروهة ، وانما كان الناس قد
ألفوا دولة صلاح الدين وأولاده فتغيرت عليهم العادة دفعة
واحدة ، ثم أن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم وتفنن ، ومن نياته
الجميلة أنه يعرف حق الصحبة ولا يتغير على اصحابه
ولا يضجر ، وهم عنده في حظوة ، وكان يواظب الى خدمة أخيه
صلاح الدين ، يكون أول داخل وآخر خارج وبهذا خلبه ، فكان
يشاوره في أمور الدولة لما جرب من نفوذ رأيه .

ولما تسلطن الأفضل بدمشق والعزیز بمصر قصد العزیز
دمشق ، وذاق جنده عليها شدائد فرحل عنها ثم حاصرها نوبة ثانية
ومعه عمه العادل ، فأخذها وعوض الأفضل بصرخد ، ولم يزل
العادل يقتل في الذروة والسنام حتى أقطعه العزیز دمشق ، وهي
السبب في أن تملك البلاد كلها وأعطى ابن أبي الحجاج يعني كاتب
الجيش لما جاءه بمذشورها ألف دينار ، ثم أخذ يدق الحيلة حتى
يستنيبه العزیز على مصر ويقيم هو بدمشق يتمتع في

بساتينها ، ففطن بعض اصحابه فرمى قلنسوته بين يديه وقال ألم يكفك أنك اعطيته دمشق حتى تعطيه مصر فنهض العزيز لوقته على غرة ولدق بمصر ، ثم شغب الجند وجرت أمور الى أن اجتمع الافضل والعاقل وقصدا مصر، وخامر جميع الاجناد على العزيز وصاروا الى الافضل والعاقل ، حتى خلت مصر والقاهرة منهم وتهدمت دولة العزيز ، ثم اصبحت وقد عادت احسن مما كانت ، وصار معه كل من كان عليه ، ورجع الملك العادل في خدمته: ورد الافضل الى الشام ، ثم إن العادل توجه الى الشام وحشد وعبر الفرات ونازل قلعة ماربين يحاصرها وبذل الأموال ، وأخذ الربض. ثم إن الملك الافضل وجد فرصة ونزل هو وأخوه الملك الظاهر صاحب حلب على دمشق يوم الثلاثاء فأصبح الملك العادل خارجا من ابواب دمشق فانقطعت قلوبهم وتعجبوا متى وصل ، وكان لما سمع بنزولهم استناب ابنه الكامل وسار على النجائب في البرية فلحق دمشق قبل نزولهم بليلة ، ومع هذا فضايقوه ، وكان أكثر أهل المدينة معهم عليه الى أن اختلف الأخوان ايهما يملكها وتنافسوا فتقاعسا ، ورحل الملك الظاهر وضعف الافضل ورحل ، وبلغت نفقة العادل عليها وعلى ماربين ألف ألف دينار .

وسعد العادل بأولاده فمن ذلك أمر خلاط فان ملكها شاه ارمن ملك مملوكه بكتمر ومات بعد صلاح الدين بنحو شهرين قتلتسه الملاحدة ، وملك بعده هزاريناري مملوكه وبقي قليلا ومات ، وتملك بعده ولده بكتمر وكان جميل الصورة حديث السن فاجتمع اليه الأراذل والمفسدون وحسدوا له طرقتهم ، فغار الأخيار وملكوا عليهم بلبان مملوك شاه ارمن وقتل ولد بكتمر أو حبسه ، وكانت أخته بنت بكتمر مزوجة بالملك المغيث طغرل بن قلج ارسلان صاحب أرزن الروم ، وبين بلبان والمغيث معاقدة ومعاضدة ، ولابن بكتمر جماعة يهوونه ، فكاتبوا الملك الاوحد بن العادل صاحب ميافارقين ، فقصد خلاط فسار المغيث لينصر بلبان فاذكف الاوحد وطمع المغيث في خلاط فاغتيال بلبان ، قتله ابن حوق باز ، وتسلم المغيث خلاط فحصل لأهلها غبن اذ غدر بملكهم فمنعوه ، ثم أنه قبض يده عن

الاحسان المنسي الضغائن ، وقال له بعض الأمراء ابذل قدر ألف دينار وأنا ضامن بحصول البلد ، قال : أخاف ان لا يحصل ويضيع مالي فعلموا أنه صغير الهمة ، فدفروا عنه وكاتبوا الأوحـد فـجاء وملكها ، ثم اختلفوا عليه ونكثوا فبذل فيهم السيف ، وانـهـزمت طائفة ، فقال لي بعض خواصه انه قتل في مدة يسيرة ثمانية عشر الف نفس من الخواص ، وكان يقتلهم ليلا بين يديه ويلقون في الآبار ، ومالبت الا قليلا واختل عقله ومات ، وتوهم أبوه أنه جن فسير اليه ابن زيد المعزم وصدقة الطبيب من دمشق ، وتملك خلـاط بعده أخوه الأشرف .

ومات الظاهر قبله بسنتين فلم يتهن بالملك بعده ، وكان كل واحد منهما ينتظر موت الآخر ، فلم يصف له العيش لأمراض لزمته بعد طول الصحة والخوف من الفرنج بعد طول الأمن ، وخرجوا الى عكا وتجمعوا على الغور فنزل العادل قبالتهم على نيسان وخفي عليه ان ينزل على عقبة فيق ، وكانوا قد هـدموا قلعة كوكب وكانت ظهرهم ، ولم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة فاغتر بما عودته المقادير من طول السلامة ، فغشيت الفرنج عسكره على غرة ، وكان قد أوى اليهم خلق من أهل البلاد يعتصمون به ، فركب مجدا ورمح الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفا ، وهم بدخولها فمنعه المعتمد وشجعه وقال : المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق ، وأما الفرنج فاعتقدوا ان هزيمته مكيدة فرجعوا من قريب دمشق بعدما عاثوا في البلاد قتلا واسرا ، وعادوا الى بلادهم وقصدوا دمياط في البحر ونازلوها ، وكان قد عرض له قبل ذلك ضعف ورعشة وصار يعتريه ورم الأنثيين ، فلما هربت الخيل على خلاف العادة وبخله الرعب لم يبق الا مدة يسيرة ومات بظاهر دمشق .

وكان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الاهانة ويبذله ، وشرع في بناء قلعة دمشق فقسـم أبرجتها على أمراءه وأولاده ، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة فخرج

من تحته خرزة بئر فيها ماء معين ، ومن نوادره ان عنتر العاقد بلغه ان شاهدا شهد على القاضي زكي الدين الظاهر بقضية مزوره ، فتكلم عنتر في الشاهد وجرحه ، فبلغ العادل فقال : من عاة عنتر الجرح ، وتوضأ مرة فقال : اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، فقال له رجل ماجن : يامـولانا ان الله قد يسر حسابك ، قال : ويك وكيف ذلك ؟ قال اذا حاسبك فقل له المال كله في قلعة جعبر لم أفرط في قليل ولا كثير ، وكانت خزانته بالكرك ثم نقلها الى قلعة جعبر وبها ولده الملك الحافظ ، فسول له بعض اصحابه الطمع فيها فأتاها الملك العادل ونقلها الى قلعة دمشق فحصلت في قبضة المعظم ، فلم ينازعه فيها أخوته ، وقيل ان المعظم هو الذي سول لأخيه الحافظ الطمع والعصيان ففعل ولم يظن بأنها مكيدة لترجع الأموال اليه ، ثم انه أخرج سراري ابيه من دمشق واستصفي أموالهن وحليهن ، وشرع يضع على املاك دمشق القطائع والخراجات الثقيلة ، الخمس على البساتين والأثمن على المزرعات .

الوزير ابن شكر

هو رجل طوال تام القصب فخما ذي اللون مشرب بحمرة ، له طلاقة محيا ، وحلاوة لسان ، وحسن هيئة ، وصحة بنية ، ذودهاء في هرج ، وخبث في طيش مع رعونه مفرطة وحقد لا تخبوناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم ، لاينام عن عدو ، ولايقبل منه معذرة ولا إنابة ويجعل الرؤساء كلام أعداءه ، ولا يرضى لعدوه بدون الاهلاك ، ولا تأخذه في نقامته رحمة ولايتفكر في آخرة ، وهو من دميرة ضيعة بديار مصر ، واستولى على العادل ظاهرا وباطنا ، ولم يمكن أحدا من الوصول إليه حتى الطبيب ، وأي وكيل والفراس عليهم عيون ، فلا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفا منه ، ولما عزل دخل الطبيب والوكيل وغيرهما فاندبسطوا وبكوا وضحكوا فأعجب السلطان ذلك ،

وقال : ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفا من ابن شكر ، قال فإننا كنت في حبس وأنا لا أشعر ، وكان غرضه إبادة أرباب البيوتات وتقريب الأراذل وشرار الفقهاء ، مثل الجمال المصري الذي صار قاضي دمشق ، ومثل ابن كسا البليسي ، والمجد البهذي الذي وزر للأشرف ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله ويوهمونه أنه أكتب من القاضي الفاضل ، بل ومن ابن العميد والصابي ، وفي الفقه أفضل من مالك ، وفي الشعر أكمل من المتنبسي وأبي تمام ، ويحافون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان ، وحلف لا يأكل من الدولة ولا فلاسا ويظهر أمانه مفرطة ، فإذا لاح له مال عظيم احتجنه ، وعملت له قبسة العجلان فأمر كاتبه أن يكتبها ويردها وقال : لانستحل أن نأخذ منك ورقا ، وكان له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلائط ، وبلغ مجموع ذلك مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان يكثر الادلال على العادل ويسخط أولاده وخواصه ، والعادل يترضاه بكل ما يقدر عليه ، وتكرر ذلك منه إلى أن غضب منه على حران ، فلما سار إلى مصر وغاضبه على عادته فأقره العادل على الغضب وأعرض عنه ، ثم ظهر منه فساد وكثرة كلام ، فأمر بنفيه عن مصر والشام ، فسكن أمد وأحسن إليه صاحبها ، فلما مات العادل عاد إلى مصر ووزر للكامل وأخذ في المصادرات وكان قد عمر .

ورأيت منه جلدا عظيما أنه كان لا يستكين للذوائب ولا يخضع للذكبات ، فمات أخوه ولم يتغير ، ومات أولاده وهو على ذلك ، وكان يحم حمى قوية ، ويأخذه النافض ، وهو في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولا يلقي جنبه إلى الأرض ، وكان يقول ما في قلبي حسرة إلا أن ابن البيساني - يعني القاضي الفاضل - ما تمرغ على عتباتي ، وكان يشتمه وابنه حاضر فلا يظهر منه تغير وداراه أحسن مداراة ، وبذل له أموالا جمة في السر .

وعرض له أسهال دمور ورخية وأنهكه حتى انقطع ويئس منه الأطباء ، فاستدعى من حينه عشرة من شيوخ الكتاب فقال أنتم

- ٦٣٣٦ -

اليهم بنفسه راجلا في تسعة أنفس فخارت قوى الملاعين بأمر الله تعالى ، وقويت نفسه بالله فسلموا أنفسهم فصفدهم وقدم بهم القاهرة ، وتولى قتلهم الفقهاء الصالحون والصوفية .

الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي

له قصة عجيبة ، وهي أنه كان به حمى ربع أقامت به سبع سنين ، فلما حضر حال السابغ وضع بين أرجل الخيل وضرب بالدبابيس حتى أثنى ، فأقلعت الحمى عنه .

أخو القاضي الفاضل

كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده زهاء مائتي كتاب من كل كتاب نسخ

أبو الفضل محمد بن محمد بن بنان القاضي الكاتب الأنباري المصري

كان رقيقا طوالا أسمر عنده أدب وترسل وخط حسن وشعر لا بأس به ، وكان صاحب ديوان مصر في زمن المصريين والفاضل ممن يغشي بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول اليه ، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري عليه ما يكفيه ويجلس في بيته ففعل ذلك .

ثم أنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الاسلام ، وأرسله إلى الديوان العزيز ، فعظم ببغداد وبجل ، ولما صرت إلى مصر وجدت ابن بنان في ضحك من العيش شديد ، وعليه بين ثقيل وأدى أمره إلى

- ٦٣٣٧ -

أن حبسه الحاكم بالجامع الأزهر ، وكان ينتقص بالقاضي الفاضل ويراه بالعين الأولى ، والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناس مراعاة الفاضل ، وكان بعض من له عليه بين المجبى جاهلا ، فصعد إليه إلى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته وضربه ، ففر وألقى بنفسه من سطح الجامع فتهشم ، فحمل إلى داره وبقي أياما ومات ، فسير القاضي الفاضل بجهازه خمسة عشر بينارامع ولده ، ثم إن القاضي مات فجأة بعده بثلاثة أيام رحمه الله •

له ، واقد رايت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق زاهلون عنها مقبلون على شؤونهم ، لم أر فيهم من يعجب لذلك أو يذكره ، فعاد تعجبي منهم اشد ، وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه .

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا ، وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشبهه وأكل بعضه .

وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فيبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا ، وحكى لي عدة نساء أنه يتوثب عليهم لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدن .

ورأيت مع امرأة فطيمة فاستحسنته وأوصيتها بحذرة فحكت لي انها بينما تمشي على الخليج انقض عليها رجل جلف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى أدركها فارس فطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله ، وأن الولد بقي مدة مريضا لشدته تجاذبه المرأة والمفترس .

ونجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس مندبين في جميع اقطار البلاد ، واذقة الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم ، وإنما يعثر عليهم في الندره واذا لم يحسنوا التحفظ ، واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء ، وما أظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ، ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، ورأيت امرأة قد أحضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي ، فضربت اكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ، ثم سحبت فماتت على المكان ، واذا

أحرق آكل اصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغني عن طبخه .

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ، وبخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ومنهم يفعله استطابة ، وحكى لنا رجل انه قد كان له صديق ادقع في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثانة الفقر وبين ايديهم طيبخ كبير اللحم وليس معه خبز فرا به ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الادمي وباللحم الطري ، فارتاع وخرج فارا .

وظهر من هؤلاء الخبثان من يتصيد الناس باصناف الحبائل ويجتابونهم الى مكائهم بأنواع المخاتل وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابني ، أما احدهم فان اباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امرأة اعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها ، فتركت درهميا وانسلت .

وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضة في الشارع بزعمه وجعل في اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يفتنم الثواب ويتضاعف الأجر ، ولذل هذا فليعمل العاملون ثم كثر حتى ارتاب منه الطيب ، ومع ذلك فحسن الظن يغلبة وقوة الطمع تجذبه حتى ابخله دارا خربة ، فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد نفع ، فجزع الطيب لما سمع ذلك والقي نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها لسعادته ، فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت بأن اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالختل .

ووجد باطليح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الادمي وعليه

الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجذب ان يهزل الناس ، وكان جماعة من الفقراء قد اودى الى الجزيرة وتستروا بيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب لهم قتلهم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام آدم شيء كثير ، وخبرني الذقة ان الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة ، ومما شاع وسمع من لفظ الوالي ان امرأة أخته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة ، وان قوما استدعواها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة ، مكمل التوابل فالفتة كثير اللحم مباينا للحم المعهود فذقزقت منه ، ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت : ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وهاهي معلقة اربا فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها انا ببير لحم ، فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها ، وهرب صاحب المنزل ، ثم صانع عن نفسه في الخفية بثلاثمائة دينار ليحقق بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا ، وزوجها غايب في الخدمة ، وكان يجاورها صغاليك فشممت عندهم رائحة طيبخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى ، فالفته لذيذا فاستزادتهم فزعموا انه ذفد فسألتهم عن كيفية عمله ، فأسروا اليها انه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواربها خوفا منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك ، فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد في جوفها .

ولو اخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهدر .
وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانة وانما هو شيء صادفناه اتفاقا ، بل كثيرا ما كنت افر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتحيز ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه اصنافا تحضر مع اناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحدة اثنان واكثر ، ووجد في بعض الايام قدر فيها عشر ايد كما تطبخ اكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح واصناف من هذا الجذس تفوت الاحصاء ، وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالهم شيخ كتبي بدين ممن يبيعنا الكتب فافلت بجريعة الذقن ، وكذلك بعض قوام جامع مصر في حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله خصاص ، واما من خر . عن اهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير .

وحكى لي من اثق به انه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من افخازه ، فاذا ذكر عليها فزعمت انه زوجها وكثيرا ما يدعي الآكل ان المأكول ولده او زوجه او نحو ذلك ، ورؤي مع عجوز صغيرة تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيري ، وأشبهه هذا كثير جدا حتى أنك لاتجد احدا في بيار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى ارباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع ايضا نبش القبور ، وأكل الموتى ، وبيع لحومهم ، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد الا وقد اكل فيه الناس اكلا ذريعا من أسوان وقوص ، والفيوم ، والمحلة ، والاسكندرية ، ودمياط ، وسائر النواحي .

وخبرني بعض اصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، واعجب ما حكى لي انه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة ، وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف وان كنت قد اسهبت اعتقد أنني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكز

يرخصون الأجرة على الركاب ، فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم
وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقر
بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف
دينار .

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يطيق علمه الا الله
سبحانه وتعالى ، وانما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على
فضاعة الامر فالذي شاهدنا بمصر والقاهرة وما تأخر ذلك أن الماشي
اين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ، أو من هو في السياق
او على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع من القاهرة خاصة الى
الميضأة كل يوم ما بين مائة الى خمس مائة ، واما مصر فليس
لموتها عدد ويرمون ولا يوارون ثم بأخره عجز عن رميهم فبقوا في
الاسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها ، والميت منهم قد تقطع والى
جانبيه الشواء والخباز ونحوه ، واما الضواحي والقرى فانه هلك
اهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات
والقرى والكبار كقوص والإشمونين والمحلة ونحو ذلك ومع هذا
ايضا فلم يبق فيها الا تحلة القسم ، وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد
فيها نانخ ضرية ، وتجد البيوت مفتحة واهلها موتى متقابلين
بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثنائه وليس له من
يأخذه ، حدثني ذلك غير واحد كل منهم يحكي ما يعضد به قول
الأخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في
الأرض ولا في السماء ، فتخللنا البيوت فالفينا اهلها كما قال الله عز
وجل: (جعلناهم حصيدا خامدين) (الانبياء ١٥) فتجد سكن كل
دار موتى فيها الرجل وزوجته واولاده ، قال ثم انتقلنا الى بلد آخر
ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في
الخراب وان الحايك في بير حياكته ميت واهله موتى حوله ،
فحضرني قول الله تعالى (إن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم
خامدون) (يس ٢٩) قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه
كالذي قبله ليس به أنيس ، وهو مشحون بموتى أهله ، قال :
واحتجنا الى الإقامة به لاجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى

مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال : ولكن قد بذلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها ، ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المذفوخة هذا من غير ان نتقصد رؤيتهم ولا احطنا بعرض البحر ، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيش العنصل ، وخبرت عن صياد يفرضه تديس أنه مر به في بعض نهار اربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وأنها عادت مادية بلحومهم الطير والسباع ، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم ، واول من هلك في هذه الطريق اهل الحوف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تنزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق ، وكثيرا ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعا حتى يموتوا ، وأما بيع الاحرار فشاع وساع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احدهما بكر ينادى عليهما احد عشر درهما ، وسألتنى امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتني ان ذلك حرام ، فبالت خذها هدية ، وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشترروهم او يبيعوههم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم الى العراق واعماق خراسان وغير ذلك ، واعجب من جميع ما اقتصناه ان الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على اصنام شهواتهم لا يراعون ، منغمسون في بحر ضلالتهم كأنهم هم المستثنون ، فمن ذلك اتخانهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه اقتض خمسين بكرا ، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر ، وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم

هذه الجملة التي اقتصصناها ، وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها نذر وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقدس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون اصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة في زحمة من الناس ، حتى أن الرباع والمساكلن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب ، وأن ربعا في اعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى اربعة بيوت اسكنت من يحرس الموضع . ولم يبق لأهل المدينة وقود ، تنانيرهم وافرانهم وبيوتهم إلا خشب السقوف والابواب والزرور ، ومما يقضى منه العجب ان جماعة من الذين مازالوا محدولين يتبعوا في دنياهم هذه السنة ، فمنهم من اثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من اثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لاسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه احترق في برمودة احتراقا كثيرا وصار المقياس في ارض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجزيرة ، وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات ابنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ، ثم انكشف امره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في ابيب من السنة الخالية ، ولم تنزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ، ثم تناقصت الى ان نهبت وبقي في الماء أجزاء نباتية منبثة فقط ، وطاب طعمه وريحه ، ثم أخذ في رمضان ينمو وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقام فيه ابن ابي الرداد قاع البركة فكان ذراعين ، وأخذ في زيادة ضعيفة أضعف منها من السنة الخالية ، ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسري ، فزاد اصبعا ، ثم وقف ثلاثة ايام فايقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ، ثم اخذ في زيادات قوية اكثرها ذراع الى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصبعا ، ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ومسى بعض البلاد تحله القسم

فكانما زارها طيف خياله في الحلم ، وانما انتفع به ماكان من البلاد
مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير ان القرى عالية عن
فلاح او حراث أصلاً فهم كما قال الله تعالى (فاصبحوا لا يرى الا
مساكنهم) (الاحقاف ٢٥) وإنما ارباب الجدات يجمعون شذائهم
ويلتقون افرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا ، حتى يباع الثور
الواحد بسبعين ديناراً والهزيل بدون ذلك ، وكثير من البلاد ينحسر
عنها الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسه
فيها فتبور لذلك مع ريهها ، وكثير مما روي يبور لعجز اهله عن
تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع اكلته الدوبة وكثير مما سلم
منها أضوى وعطب ، ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير
الاردب والبول والشعير باربعة دنانير ، وأما بقوص والاسكندرية
فبلغ ستة دنانير ، ومن الله سبحانه يرجى الفرج ، وهو المتيح للخير
بمنه وجوده .

الفصل الثالث

في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

ودخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزيد الى زهاء نصفها ، فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب ، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره اصلاً ، وقل خطف الأطعمة من الاسواق ، وذلك لفناء الصعاليك وقتلهم من المدينة وانحطت الأسعار حتى عاد الارب بثلاثة بنانير لقله الأكلين للكثرة المأكول ، وخفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة ، والاف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي ، وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة مذسج للحصر ، فلم يبق الا خمسة عشر مذسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك ، وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكي لي أن رجلاً مصرياً شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجاً بستين ديناراً وباعها بالقاهرة على القمطين بنحو ثمانين مائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثاً ثم اربعاً واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبت برهة يباع الفروج بسينار فصاعداً ، وأما الافران فانما توقد بأخشاب الدور فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقدر زروبه وأخشابه أيما ، ثم يشتري آخر وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلاً يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعراً وربما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشترياً فيفصل أخشابها وابوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها

مهذومة وكذلك ايضا يفعلون بدور الكراء ، واما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها انيس ، وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها ، وكثيرا من اهلها موتى فيها ، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر في غاية العمارة واهلها في غاية الكثرة ، واما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى ان المسافر يسير في كل جهة أياما لا يصادف حيوانا الا الرمم ما خلا البلاد الكبار كقوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية فان فيها بقايا ما عدا هذه وامثالها فان البلد الذي كان يحتوي على الوف خال أو كالخالي .

وأما الاملاك ذوات الأجر المعتبر فان معظمها خلا ولم يبق دأب أهلها الا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالقتها أو اسكانها من يحرسها باجره ، اللهم الا ما كان من الملك في قبضة المدينة فان بعضه مسكون باخف اجرة ، وأعرف ربعا في اعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين بينارا ، فعادت في هذه السنة الى نحو عشرين بينارا وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر بينارا فعادت الى فويق البينار ، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس افهمه ، والذي دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن وجرى له اسم في النديوان وضمته الميضاة في مدة اثنين وعشرين شهرا اولها شوال من سنة ست وتسعين وأخرها رجب من سنة ثمان وتسعين مائة الف نفس وأحد عشر ألفا أحادا ، وهذا مع كثرته نزر في جنب النين هلكوا في دورهم وفي أطراف المدينة واصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر ، وما تاخما ، وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلبين وذلك نزر جدا في جنب من هلك او اكل في سائر البلاد والضواحي والطرقات ، وخاصة طريق الشام فانه لم يرد أحد من ناحيته فسألته عن طريق الا ذكر أنها مزروعة بالاشلاء والرمم ، وهكذا وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد ، ولاسيما عند وقت الزراعة فلعله يموت على المحراث

الواحد عدة فلاحين ، حكى لنا أن النين بذروا غير النين حرثوا ، وكذلك النين حصدوا. وياشر زراعة لبعض الرؤساء ، فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم هكذا مرات في عدة جهات .

وسمنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبع مائة جنازة ، وان تركة واحد انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثا وان طائفة كبيرة من اهلها تزيد على عشرين الفا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري ، وعلى يديه وكان وزيراً ظالماً ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكان هذا الحادث تقاصي في الطبيعة .

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن ينتابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل من زبونه ذو شارة وشهرة بستر وبين وجدة ، فلما حصل في المنزل اغلق الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ، وضربه المريض ، غير أنه لم يكن لهما معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجهم فتسامع ودخلوا فخلصوا الشيخ مرتثا وبه رمق يسير ، وقد وجئت خصيتاه وكسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه ، وأحضر الفاعل الى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : الجوع فضربه ونفاه .

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرين من بشنس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس وهبوا من مضاجعهم مدهوشين ، وضجوا الى الله سبحانه ولبثت مدة طويلة ، وكانت حركتها كالغربة أو كذفق جناح الطير ، وانقضت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الابنية واصططقت الابواب ، وصرصت السقوف والاشخاب وتداعى من الابنية ماكان واهيا أو مشرفا عاليا ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين الا انها لم يحس بها اكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان في هذه الليلة

برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفي نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالكظم ، وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الاخبار تتواتر بحدوث الزلزلة في الدواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها ، والذي صح عندي انها حركت في ساعة واحدة طايفة من الارض من قوص الى دمياط ، والاسكندرية ، ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا ، وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها اثر ، وهلك من الناس خلق عظيم ، وامم لاتحصى ، ولا أعرف في الشام بلدا احسن سلامة من القدس ، فانها لم تنل منه الا مالا بال به وكانت نكاية الزلزلة في بلاد الافرنج اكثر منها في بلاد الاسلام كثيرا وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفرق في مواضع ، وصارت فرقة كالاطواد ، وعادت المراكب على الارض ، وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ثم وردت كتب من الشام ومن دمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة ، ومما اتصل بي كتابان اوردتهاما بلفظهما . نسخة الكتاب الوارد من حماه « ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمور مورا ، وما ظن أحد من الخلق الا انها زلزلة الساعة ، وأتت دفعتين في ذلك الوقت ، اما الدفعة الاولى فاستمرت ساعة أو تزيد عليها ، واما الثانية فكانت دونها ، ولكن أشد ، وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماه مع اتقانها وعمارتها ، وبارين مع اكتنازها ولطافتها ، وبعليك مع قوتها ووثاقتها ، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع البازخة الى الآن ما أذكره ، ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في عملها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم ايضا وقت صلاة العصر ، ووصل الخبر من دمشق بان الزلزلة أفسدت

فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه ،
وعدة مساكن تساقطت على اهلها فهلكوا » .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق : « والمملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة
الاثنين سادس وعشرين شعبان ، وقت انفجار الفجر ، وأقامت مدة
قال بعض الاصحاب انها مقدار ماقرأ سورة الكهف ، وذكر بعض
المشايع بدمشق انه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما اثرت في البلد
سقوط ست عشرة شرافة من الجامع ، واحدى الموانن وتشقق
أخرى ، وقبة الرصاص ، يعني الذسر وانخساف الكلاسة ومات فيها
رجلان ، ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع
كثيرة ، وسقط بالبلد عدة ادور ، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس
سقطت بعضها ، وصدف كذلك ، ولم يبق بها الا من هلك سوى
السمرة ، ويذكر ان القدس سالم والحمد لله .

اما بيت جن فلم يبق منه ولا اساس الجدران الا وقد اتى عليه
الخرس ، وكذلك اكثر بلاد حوران غارت ، ولم يعرف لبلد منها
موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية ، ويقال ان عكة سقط اكثرها ،
وصور ذلثها وعرقه خسف بها وكذلك صافيتا وأما جبل لبنان ففيه
موضع يدخل الناس اليه بين جبليين يجمع منه الريباس الاخضر
فيقال الجبلين انطبقا على من بينهما ، وكانت عدتهم تناهز مائتي
رجل ، وقد اكثر الناس في حديثها ، واقامت بعد ذلك اربعة ايام
تحدث في النهار والليل ، ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم
الوكيل ..

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة من ينتابني في الطب وصلوا الى
كتاب التشريح ، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن
العيان فاخبرنا ان بالقدس تلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا
من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون تراهه أقلا ، من الموتى ، به بحسب
ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات في
قرب العهد وبعده فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية

اتصالها وتناسبها واطرافها ما افادنا علما لانستفيده من الكتب ،
واما أنها سكتت عنها اولا يفي لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما
شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع ، فان
جالينوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما
يباشره ويحكىه ، فان الحس اصدق منه ، ثم بعد ذلك يتخيل لقوله
نخرج ان امكن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه
عظمان بمفصل وثيق عند الحذك ، وقولنا الكل انما نعني به هاهنا
جالينوس وحده هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ، ونصب
عينه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والباقي لم يخرج
الى لسان العرب ، والذي شاهدنا من حال هذا العضو انه عظم
واحد ليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ماشاء الله من
المرات في اشخاص كثيرة تزيد على الفسي جمجمة باصناف من
الاعتبارات فلم نجده الا عظيما واحدا من كل وجه ، ثم اننا بجماعة
متفرقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ماشاهدناه
منه وحكيانه ، وكذلك في أشياء آخر غير هذه ولئن مكنتنا المقايير
بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ماشاهدناه وما علمناه من
كتب جالينوس ، ثم اني اعتبرت هذا العظم بمدافن بوصير القديمة
المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن
الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر ،
وتتفرق وهذا الفك الاسفل لا يوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة ،
واما العجز فقد ذكر جالينوس انه مؤلف من ستة اعظم ، ووجدته انا
عظما واحدا ، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ،
ثم اني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة اعظم كما قال جالينوس ،
وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال الا في جثتين فقط فانني
وجدته فيهما عظما واحدا ، وهو في الجميع موثق المفاصل ، ولست واثقا
بذلك كما انا واثق باتحاد عظم الفك الاسفل ، ثم اننا دخلنا مصر
فراينا فيها دروبا واسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع
خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل في الاحايين ، وأن المار فيها
ليست وحش ، ومع ذلك فقلما يذفك قطر منها عن جثة او عظام
متفرقة ، حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فراينا

القاع ذراعا ونصفا وكان في السنة الخالية ذراعين ، وابتدأ بالزيادة في السنة الخالية هذا اليوم ، فاما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من ابيب لم يزد في هذه المدة سوى أربع اصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس فظنوا ان حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ، ثم أخذ في الزيادة حتى انسلخ ابيب ، وهو على ثلاث اذرع ووقف يومين ، فاشتد هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع بقوة قوية وزيادات متدركة ، وجبال من المياة متدافعة فزاد ثمانى اذرع في مدة عشرة ايام منها ، ثلاث اذرع متوالية ، وانتهى في رابع توت وهو الثاني عشر من ذي الحجة الى ست عشرة ذراعا تنقص اصبعها واقام يومين ثم اخذ ينحط متباطئا وينصرف رويدا .

فهذا ما قصد اقتصاصه من احوال هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنهى الكلام .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبي الامي وعلى آله الطيبين الطاهرين ، كتبه مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي في رمضان سنة ستمائة بالقاهرة .